كانت رحلة الرئيس إلى القدس «سلاما» من خلال القوة.

أخشى أن تغلق إسرائيل باب السلام بيدها

أكتوبر

كان الاستاذ : شمعون شامير ، استاذ « تاريخ اليهود فى مصر » بجامعة تل ابيب ، قد زار مصر عدة مرات . . وفى زيارته الأخيرة التق بالرئيس انور السادات . وقد تحدث د . شامير فى الاذاعة والتليفزيون باسرائيل عن اثر هذا اللقاء فى نفسه وفى تفكيره . . ونشر عددا من المقالات عن الرأى العام المصرى والاسرائيلى عن السلام والخوف منه والخوف عليه . .

وهذا المقال قد نشره فى صحيفة هاآرتس الاسرائيلية ، وترجمه هو الى العربية وبعث به الينا . . فشكرا له . .

شمعون شامير

وليست مسألة العلاقات مع إسرائيل اولى المسائل التى تشغل بال المصريين ، كما أن الموقف من السلام أيضا . من خلال إدراكى لهذه المعوقات وماشاكلها ، ولجوئى مضطرا إلى بعض التعميم ، فإنه يمكننى التخيص انطباعاتى فى الموضوع (كما كان فى شهرى يونيو ويوليو) فى خمس عشرة نقطة .

إن رغبة الشعب المصرى فى السلام ، وانتقال مصر إلى عهد السلام والقضاء على شبح الحرب ، مازالت من المقومات الأساسية فى الموقف المصرى ، وتشكل هذه الرغبة جزءا من الاجماع الوطنى ، حتى إن معارضى الاتفاقية التى وقعت مع إسرائيل لايبغون ضرورة السلام . هذا الموقف يلق تعبيرا قويا وواضحا فى جميع الأوساط ابتداء من الطبقات الشعبية حيث يفسرونه بالاستناد إلى تجارب الحياة وعبرها . وانتهاء بالرئيس السادات الذى يعبر عن التزامه العميق بسياسة السلام ، وبحثها من التطورات التاريخية الهامة فى هذا العصر . كما يرى فى تطبيقها تتويجا للإنجازات التى تمت فى عهده .

مازالت سياسة السلام ، كما كانت فى أول عهدها فى السبعينات ، سياسة واقعية حكيمة تستند إلى المصالح الحيوية لمصر والظروف الموضوعية فيها . فهى تهدف إلى تفرغ مصر لتطوير اقتصادها وتقدمها الاجتماعى ، وإلى الغاء اعتمادها على الدول العربية وتجنب مايجره استمرار الصراع المسلح وتصعيده من دمار وويلات (بما فى ذلك الخطر النووى فى رأى بعض المصريين) .

أما على المستوى الفكرى فالغاية هى تمكين مصر من بلورة ثقافتها وتطويرها من جديد وبذلك تندمج سياسة السلام عضويا بالخطوط العريضة الاستراتيجية الشاملة للنظام الحاكم فى مصر .

هكذا فإن السلام مع إسرائيل يقوم على أساس من المصالح المشتركة ، وليس على تقارب ايديولوجى . فالمصريون لم يسلموا بالمبادىء الأساسية للحركة الصهيونية ، كما أن مصطلح « الصهيونية » بحد ذاته مازال يحمل فى طياته دلالات سلبية عندهم . وهناك بعض المصريين الذين يحاولون تسوية هذا التناقض القائم بين المصلحة والايديولوجية عن طريق « التسويغ المنطق » rationalization القائل بأن السلام بالذات هو الذى سيؤدى إلى تلاشى إسرائيل كدولة صهيونية ولكن هذا الزعم ليس شائعا هذه الأيام . إن مستوى المعرفة عن إسرائيل وثقافتها وتاريخها مازال ضعيفا للغاية

وكما يبدو جليا من كل هذا ، فإن السلام الذى وقعت عليه إسرائيل كان سلاما مع مصر . لا مع الرئيس السادات وحده . وفى أغلب الظن أن مصر ما كانت ، لولا قدرة الرئيس السادات على اتخاذ القرار ، تطلح فى ترجمة مصالحها إلى سياسة سلام كما أنها ما كانت لتستطيع لولا قيادته الحازمة ، الدفاع عن هذه السياسة فى وجه الضغوط الخارجية والداخلية ، ولكن هناك فى مصر اليوم نخبة من القادة political elite الذين يؤيدون المبادىء الاساسية لسياسة السلام ، وسوف يتوقف الأمر على مدى قدرتهم وشجاعتهم فى تمسك مصر بهذا الخط ، وفى منع ردة تلغى الاستراتيجية السياسية كلية بما فيها السلام مع إسرائيل .

إن شعور مصر بالثقة أمام العالم العربى وإيمانها بقدرتها وبواجبها فى إرشاده إلى الطريق ، لم يضعف مع الأيام . كذلك يرى مصريون كثيرون فى عدم حدة المقاطعة العربية وفى عودة الالوف من العرب إلى مصر بغرض السياحة أو الأعمال ، برهانا على صحة موقفهم .

فمن الطبيعى إذن أن يؤيد المصريون الرئيس حين يصرح بأن سياسته تهدف فيما تهدف إلى تلقين درس للزعماء العرب الذين مازالوا يعيشون فى الماضى ، ولا يقدرون على الارتفاع فوق أحقادهم الضيقة .

وهذا الموقف لايتناقض مع الرأى السائد بأن مصر مضطرة فى المدى البعيد ، إلى إعادة الحضور مع العالم العربى ، فالتصور المصرى يرى أن من واجب مصر إرشاد العالم العربى إلى الطريق دون الانفصال عنه ، لذا فإن امتناع الدول العربية عن السير فى خط السياسة المصرية - خلاف معارضتها فى المرحلة الأولى - يعتبر مشكلة حادة .

إن موقف حكومة إسرائيل فى مسألة الحكم الذاتى وممارساتها فى الضفة والقطاع تؤدى إلى

حية أمل كبير فى مصر كما تثير فيها غضبا عارما ان اتفاقية السلام مع إسرائيل ماكانت اتفاقية مقبولة فى يوم من الأيام. وإن كانت مسألة سيناء تهم المصريين أكثر من غيرها. فالجانب الفلسطينى فى هذه الاتفاقية يعتبر ذا شأن نوع خاص. كما أنه يمثل الحالة test case للاتفاقية كلها. صحيح أن المصريين لم يروا حلا محددا للقضية الفلسطينية فى المستقبل القريب. ولكنهم آمنوا. مع ذلك. بأن تقدما عاما على طريق الحل سوف يتبع توقيع الاتفاقية.

إن المصريين. على كافة المستويات. يشجبون بشدة التصور الاسرائيل للحكم الذاتى. إذ هو يفرغه فى نظرهم. من كل مضمون كما يتشددون تدهور الوضع فى المناطق. الذى يجرى فى رأيهم عن قصد. إن المستوطنات والمصادرات وطرق معاقبة سكان المناطق والأعمال الإرهابية ضدهم والخطوات المقترحة بالنسبة للقدس. هى فى رأيهم. اجراءات تهدف إلى سد الطريق أمام إمكانية التقدم فى تسوية القضية الفلسطينية كما تشكل تحديا صريحا لمصر نفسها.

فهى رأى مسئول كبير فى الحكومة المصرية. أن تصرف إسرائيل فى السنتين الأخيرتين منذ توقيع الاتفاقية قد أساء إلى سمعتها image أكثر مما فعلت ثلاثون سنة من الصراع. وعلى هذا الأساس تتعاظم الشكوك فى مصر حول عملية السلام كما يسود التشاؤم بشأن مستقبله.

يتقدم تطبيع العلاقات على الجانب المصرى فى بطء. وليس هناك أى تقدم تقريبا فى المجالات التى تتطلب تعاونا طواعية. كالسياحة والعلاقات التجارية والثقافية. وهذا الموقف لايعود إلى الرأى العام السلبى المذكور فحسب (والمصالح الأيديولوجية للأوساط المختلفة التى تعارض مبدأ التطبيع) بل إلى توجيه السلطات أيضا. فهى رأى كثير من المصريين أنه مادامت إسرائيل تقوم بتطبيق معين لحكم الذاتى وتفريغه من جوهره. فإن مصر بدورها ستقوم بتطبيق مفهوم تطبيع العلاقات ولن تسرع إلى ملئه بمحتوى حقيقى. فليس هناك استعداد كبير فى مصر لسماع الرأى القائل بأن مجرد التعاون والحوار من شأنهما أن يدفعا بعملية السلام قدما لما فيه مصلحة مصر وإسرائيل معا.

إن العداء المصرى لموقف إسرائيل الحالى قد مر بعملية تشخيص. بحيث تمثل هذا العداء. على حد حاد. فى شخص رئيس الحكومة بيجين. فالمصريون يندددون برئيس الحكومة بشدة بصفته عقبة على طريق السلام. ولايستثنى فى هذا المجال إلا الرئيس السادات الذى يحاول المحافظة على علاقات عمل وثيقة مع بيجين فقد دأب مؤخرا على إبداء رغبته فى إزالة التوتر الذى ساد علاقاتهما الشخصية كما انسمت تصريحاته عن بيجين بناء على ذلك. بالباقة والتقدير. ولكن حتى الرئيس السادات يرى أن بيجين قد وصل الى نهاية الطريق.

ورغم هذه المشاعر السلبية فإن مصريين كثيرين يؤمنون بأن طريق السلام الشامل لم يسد نهائيا بعد. فهناك من يؤمن. مثل الدكتور بطرس غالى. بأن فى الإمكان اتخاذ خطوة حازمة لتحسين جو العلاقات فى المناطق بحيث تتوافر إمكانية التقدم إلى التسوية (ولكن من الواضح أن إلمامهم بالمشاكل الراهنة فى المناطق محدود للغاية). كذلك فإن إمكانية اشتراك الأردن فى الحل كما يرى الرئيس السادات. لم تقع أبدا. فعلى الرغم من نقده الشديد للملك حسين فإنه يؤكد أن مصر لم تتخل عن مقولات الإسكندرية التى وقعت مع الملك حسين فى يوليو ١٩٧٤. والتى تشير إلى حل اردنى فلسطينى. كذلك فإن الرئيس السادات يصرح بأنه يؤمن بإمكانية تطبيق الحكم الذاتى فى قطاع غزة أولا ليكون نموذجا للمناطق الأخرى. وهو يؤكد. قبل كل شىء. أن تساهلا إسرائيليا فى الأماكن الإسلامية المقدسة فى القدس من شأنه أن يدفع عملية السلام. وأن يدفع بدول أخرى للمشاركة فيها.

وعلى هذا الأساس فإن مصريين كثيرين يرون ان تغيير الحكومة فى إسرائيل وصعود حزب العمل الى الحكم. سوف يؤديان إلى تجدد القوة الدافعة momentum فالقيادة السياسية فى مصر. تعرف الآراء التى ادلى بها شمعون بيريز فى مقابلاته الأخيرة فى الصحافة العالمية. ومع ذلك. فإنهم ليسوا على يقين من السياسة التى سينهجها حزب العمل فى الواقع. كما يرى كثيرون أنه لافرق فى الواقع بين سياسة حزب العمل والليكود. رغم المواقف المعلنة.

على ضوء ماتقدم فإن المصريين يعتبرون الفترة الراهنة فترة انتقالية على الأقل حتى قيام الإدارة الجديدة فى الولايات المتحدة. ويرغب المصريون فى انتهاز هذه الفترة للتأكيد على التزامهم بالأهداف العربية. بما فيها مسألة القدس. كما يطمعون فى اجتياز هذه الفترة دون مشاكل وأزمات لا لزوم لها. ولهذا فقد كان الغرض الأساسى فى حديث الرئيس السادات هو الدعوة إلى تجنب العصبية ونقاد الصبر. والوثوق بتقدم عملية السلام رغم كل المصاعب.

إن تدهور العلاقات بين مصر وإسرائيل قد جعل من الممكن. حتى فى الفترة الانتقالية. أن تتخذ مصر خطوات انفرادية. كتجميد المفاوضات أو تعليقها ومماثلة. ولكن يبدو أن خطوات كهذه أيضا ستكون فى إطار السياسة الشاملة. دون التراجع مبدئيا عن عملية السلام. صحيح أن الرئيس السادات يستطيع نظريا التراجع مبدئيا عن عملية السلام. إذا كان الأمر متعلقا بالوضع الداخلى فى مصر والوضع العربى عامة. ولكن خطوة كهذه تتعارض مع منطق سياسته كلية.

إن التجديد البارز فى موقف مصر اليوم. بالنسبة للسنة الماضية. هو التأكيد الشديد على مسألة القدس. وأسباب تصدر هذه المشكلة هى اجتماع الاعتبارات المصرية المذكورة آنفا. وتصريحات حكومة اسرائيل معا. فالرئيس السادات لايعتبر التقدم فى مشكلة القدس مناقضا لاستراتيجية الخطوة بعد الخطوة. كما يرى ان مشكلة الضفة والقطاع أكثر تعقيدا من مشكلة القدس. حيث يمكن للعرب أن يوافقوا على أن تكون المدينة الغربية عاصمة إسرائيل. وتظل المدينة موحدة كما تبقى الأماكن المقدسة لليهود فى شرق المدينة تحت علم إسرائيل. وعلى كل حال. فإن مشكلة القدس إذا أثيرت احتلت مكانة كبرى فى وعى الجماهير المصرية. فانتقلت من مسألة هامدة إلى مسألة متوقدة وإلى عقبة على طريق السلام.

وهناك عقبة أخرى تتمثل فى التوقعات التى ظهرت فى الجماهير المصرية فى بداية عملية السلام حول التحسن الفورى فى مستوى المعيشة والوضع الاجتماعى السياسى فى الداخل. فمن الطبيعى أنه لايمكن موضوعيا تحقيق هذه الاصلاحات بين عشية وضحاها. وهنا يكمن الخطر فى موقف الجماهير من السلام. ومن ناحية أخرى فإنه ليس من الصعب الإشارة إلى الفائدة التى قد جنتها مصر من عملية السلام. وإلى أن دفعة التطور الحالية. فى ميادين شتى. لم يكن من الممكن تحقيقها فى ظروف الصراع المستمر. كما تستطع الأوساط الواعية فى الجمهور المصرى تقدير مدى الأضرار فى الاقتصاد والأجهزة الداخلية التى تجنبتها مصر بانهائها سياسة السلام. ولكن هذا التقدير لايتعدى هذه الأوساط إلى الجماهير الشعبية الواسعة.

هناك صعوبة أخرى فى عملية السلام تتعلق بصورة إسرائيل لدى المصريين. فقد كان السلام الذى اختطه الرئيس السادات. برحلته التاريخية إلى القدس. «سلاما» من خلال القوة. سلاما بين قادة أقوياء ودولتين قويتين توصلتا إلى النتيجة بأن إحداهما لاتقدر على فرض الحل بالقوة على الأخرى. ولذا فإن قوة إسرائيل (وكذلك قوة مصر) كانت منذ البداية ركنا من أركان عملية السلام. وإنها لظاهرة تثير القلق أن تكشف إسرائيل. خلال السنتين الأخيرتين. أمام الأعين المصرية الفاحصة. عوامل ضعف داخل بصر بصورتها القوية.

أخيرا فإن أكثر مايثير المرء الزائر من خلال الحديث مع المصريين. بعد التعرف إليهم عن كثب ولوقت غير قصير. هو أن يدرك مدى إعجاب المصريين العظيم برحلة الرئيس التاريخية إلى القدس. وبالقوة الخالقة التى كانت لهذه الرحلة فى توجيه التطورات فى علاقات مصر وإسرائيل.

إن المصريين يحدثونك مرة بعد أخرى كيف أثبت رحلة الرئيس التاريخية عجائبه وكيف أحسوا ساعتها بانهيار النظام الاقليمى القائم فى الشرق الأوسط.

الوضع الذى يشكل الصراع مع إسرائيل القلب منه والمركز. وكيف تاقت أنفسهم إلى أن يقوم بدلا منه وضع جديد تماما تكون فى مركزه الأهداف السامة.

وهناك من يضيفون أنهم آمنوا بأن إسرائيل ومصر ستكونان فى مركز الوضع الجديد إذ هما أكثر دول المنطقة قوة وتطورا. والدولتان الوحيدتان الجديرتان بهذا الاسم.

من كل ماتقدم يتلقى المرء انطباعا قويا بأنه وإن كانت عملية السلام لم تبدد لدى مصريين كثيرين الضباب الذى يلف مصير الدولة اليهودية. فإن مبادرة السلام قد حققت فى بدايتها جوا ملائما كان يمكن لإسرائيل فيه أن تحظى بالاعتراف بشرعيتها فى المنطقة. ويشير المصريون باستمرار إلى المخ الذى يجب على إسرائيل. فى نظرهم. أن تدفعه فى سبيل حدوث هذا التحول: اتفاقية مع الفلسطينيين. فى رأى أحد المثقفين المصريين البارزين. أن تذكرة دخول إسرائيل إلى نادى الشرق الأوسط هى أن تثبت رغبتها وقدرتها على التعايش مع الفلسطينيين بسلام. ومع الأسف فى الأسابيع الأخيرة. احدث الشكوك تساور مصريين كثيرين حول رغبة إسرائيل وقدرتها على تحقيق ذلك.

إن الصورة الشاملة من هذه الانطباعات لاتبعث على الرضا والسرور. إن عملية السلام تفقد من قوتها الدافعة شيئا فشيئا. كما تفقد جذورها فى وعى وجماهة المصريين والإسرائيليين معا. ومما يثير القلق بشكل خاص أن تتبين الهوة الشاسعة بين القوة الكبيرة لعملية السلام فى البداية وصورتها الضئيلة اليوم.

إن توافق الظروف الرائعة اليوم. فى مصر والمنطقة. يتيح الفرصة للتقدم نحو السلام الذى كان حلم إسرائيل دائما وأبدا.

إن هذه الفرصة وإن كانت غير أكيدة تماما. جديرة بسياسة إسرائيلية بعيدة النظر. تتناولها وتحاول استغلالها حتى النهاية.

وإنه لمن الصعب على المرء أن يتخلص من الإحساس بأن إسرائيل. هذه المرة. قد تغلق بيدها هى.. هذا الباب الذى انفتح. وتفوت هذه الفرصة المواتية.

□

الملك حسين. حل أردنى فلسطينى

د. بطرس غالى. تحسين جو العلاقات

شمعون بيريز. مقابلات فى الصحافة العالمية